تفسير

القرآن العظيم

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء
إسماعيل بن كثير الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

هذه الطبعة أول طبعة مقابلة على النسخة الأزهرية
وكذلك على نسخة كاملة بدار الكتب المصرية

تحقيق

مصطفى السيد محمد — محمد السيد رشاد
محمد فضل العجماوي — علي أحمد عبد الباقي
حسن عباس قطب

المجلد الثاني

مؤسسة قرطبة
طباعة . نشر . توزيع
جيزة - ت : ٥٨١٥٠٢٧

مكتبة أولاد الشيخ للتراث
٣٦ ش اليابان - عمرانية غربية - جيزة
ت : ٥٦٢٨٣١٨ - ٥٦١١٤٤٢

رقم الإيداع : ٩٣٤٩ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N
6 - 33 - 5234 - 977

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م

الفاروق الحديثة للطباعة والنشر هاتف: ٤٣٠٧٥٢٦-٢٠٥٥٦٨٨ القاهرة

تفسير
القرآن العظيم

ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيًّا من السبي ؛ أخذته ، فألصقته بصدرها ، وهي تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها . فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « **أترون هذه طارحة ولدها في النار ، وهي تقدر على ألَّا تطرحه ؟** » قالوا : لا يا رسول اللَّه . قال : «**فواللَّه ؛ للَّه أرحم بعباده من هذه بولدها** » .

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس(٨٧٩) : كان أول ما نُسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثرَ أهلها اليهودُ ، فأمره اللَّه أن يستقبل بيت المقدس ؛ ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بضعة عشر شهرًا ، وكان يحب قبلة إبراهيم ؛ فكان يدعو إلى اللَّه وينظر إلى السماء ، فأنزل اللَّه : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فولوا وجوهكم شطره** ﴾ . فارتابت[١] من ذلك اليهود ، وقالوا : ﴿ **ما ولَّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل للَّه المشرق والمغرب** ﴾ ، وقال : ﴿ **فأينما تولوا فثمَّ وجه اللَّه** ﴾ ، وقال اللَّه تعالى : ﴿ **وما جعلنا القبلةَ التي كنت عليها إلا لنعلمَ من يتبعُ الرسولَ ممن ينقلبُ على عقبيه** ﴾ .

وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري ، عن عمه عبيد اللَّه بن عمر ، عن داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ قال : كان النبي صلى اللَّه عليه وسلم إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء . فأنزل اللَّه : ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ إلى الكعبة إلى الميزاب[٢] يؤم به جبرائيل عليه السلام .

وروى الحاكم(٨٨٠) في « مستدركه » من حديث شعبة ، عن يعلى بن[٣] عطاء ، عن[٤] يحيى

(٨٧٩) - رواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن أبي صالح كاتب الليث - صدوق كثير الغلط ، ثبت في كتابه ، وكانت فيه غفلة - عن معاوية بن صالح - صدوق له أوهام - عن علي بن أبي طلحة - منقطع - عن ابن عباس به برقم ١٣٥٥ - (٢٥٣/١) .

(٨٨٠) - المستدرك (٢٦٩/٢) . ويعلى بن عطاء : ثقة ، من رجال مسلم . ويحيى بن قمطة : أورده ابن أبي حاتم (١٨١/٩) ، والبخاري (٢٦٩/٨) ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً . وذكره ابن حبان في الثقات (٥٢٩/٥) .

[١] - في ز ، خ : « فارتاب » .
[٢] - في خ : « الميزان » .
[٣] - في خ : « عن » .
[٤] - في ز ، خ : « بن » .

ابن قمطة[١] ، قال : رأيت عبد الله بن عمرو جالسًا في المسجد الحرام ، بإزاء الميزاب ، فتلا هذه الآية : ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها** ﴾ قال : نحو ميزاب الكعبة .

ثم قال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

ورواه ابن أبي حاتم(٨٨١) ، عن الحسن بن عرفة ، عن هشيم[٢] ، عن يعلى بن عطاء ، به .

وهكذا قال غيره ، وهو أحد قولي الشافعي رضي الله عنه : إن الغرض إصابة عين الكعبة[٣] .

والقول الآخر - وعليه الأكثرون - أن المراد المواجهة[٤] كما رواه الحاكم(٨٨٢) ، من حديث [أبي إسحاق][٥]، عن عمير بن زياد الكندي ، عن علي [بن أبي طالب][٦] رضي الله عنه ؛ ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ قال : شطره : قِبَلَهُ . ثم قال : صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه .

وهذا قول أبي العالية ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وغيرهم . وكما تقدم في الحديث الآخر : « **ما بين المشرق والمغرب قبلة** » .

[وقال القرطبي : روى ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « **البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي** »(٨٨٣)][٧] .

و[٨]قال أبو نعيم الفضل بن دكين : حدّثنا زهير ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ، أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهرًا، أو سبعة عشر شهرًا ، وكان يعجبه قبلته قِبَل البيت ، وأنه صلى صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان يصلي معه ، فمرّ

(٨٨١) - ابن أبي حاتم ١٣٥٧ - (٢٥٣/١) .

(٨٨٢) - المستدرك (٢٦٩/٢) . وأبو إسحاق : مدلس ، وقد عنعن . وعميرة بن زياد الكندي : ذكره ابن حبان في الثقات (٢٨٠/٥) والبخاري في التاريخ (٦٩/٧) وابن سعد في الطبقات (٢٠٣/٦) وابن أبي حاتم (٢٤/٧) . ووثقه العجلي (١٩٣/٢) .

(٨٨٣) - رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩/٢ - ١٠) من طريق عمر بن حفص ، عن ابن جريج به ، وقال البيهقي : « تفرد به عمر بن حفص المكي وهو ضعيف لا يحتج به ، وروى بإسناد آخر ضعيف ، عن عبد الله بن حبشي كذلك مرفوعًا ، ولا يحتج بمثله ، والله أعلم » .

---

[١] - في حاشية (ز) : قطمة . وعليها علامة (خ)

[٢] - في ت : « هشام » .

[٣] - في ز ، خ : « القبلة » .

[٤] - في ز : « الوجهة » .

[٥] - في ت : محمد بن إسحاق .

[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٨] - زيادة من : خ .

على أهل المسجد ، وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قِبَلَ البيت(٨٨٤) .

وقال عبد الرزاق(٨٨٥) : أخبرنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء قال[١] : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرًا ، أو سبعة عشر شهرًا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يحول نحو الكعبة ، فنزلت : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء** ﴾ فصرف إلى الكعبة .

وروى النسائي (٨٨٦) ، عن أبي سعيد بن المعلى قال : كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنمر على المسجد فنصلي فيه ، فمررنا يومًا ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر ، فقلت : لقد حدث أمر ، فجلست ، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها** ﴾ حتى فرغ من الآية ، فقلت لصاحبي : تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فنكون أول من صلى ، فتوارينا فصليناهما ، ثم نزل النبي صلى الله عليه وسلم فصلى للناس الظهر يومئذٍ .

وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر : أن أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلاة الظهر ، وأنها الصلاة الوسطى ، والمشهور أن[٢] أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر ؛ ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدّثنا الحسين بن إسحاق التستري ، حدّثنا رجاء بن[٣] محمد السقطي ، حدّثنا إسحاق بن إدريس ، حدّثنا إبراهيم بن جعفر ، حدّثني أبي ، عن جدته أم أبيه نويلة بنت مسلم قالت : صلينا الظهر ، أو العصر في مسجد بني حارثة ، فاستقبلنا مسجد إيلياء ، فصلينا ركعتين ، ثم جاء من يحدّثنا : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل البيت الحرام ، فتحوّل النساء مكان الرجال ، والرجال مكان النساء ، فصلينا السجدتين الباقيتين ؛ ونحن مستقبلون البيت الحرام ؛ فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **أولئك رجال يؤمنون بالغيب**»(٨٨٧) .

(٨٨٤) - رواه البخاري في كتاب التفسير من صحيحه ، باب : ﴿ **سيقول السفهاء ....** ﴾ برقم (٤٤٨٦) عن أبي نعيم به وفيه زيادة .

(٨٨٥) - رواه ابن أبي حاتم ، عن الحسن بن أبي الربيع ، عن عبد الرزاق به برقم ١٣٥٤ - (١/٢٥٢ - ٢٥٣) .

(٨٨٦) - سنن النسائي الكبرى (١١٠٠٤) .

(٨٨٧) - **إسناده ضعيف** ، والحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤٣/٢٥) وقال الهيثمي في المجمع =

[١] - سقط من : خ .

[٢] - في خ : « أنها » .

[٣] - في ز ، خ : « عن » .

[وقال ابن مردويه أيضًا][١] : حدثنا محمد بن على بن دحيم ، حدّثنا أحمد بن حازم ، حدّثنا مالك بن إسماعيل النهدي ، حدّثنا قيس ، عن زياد بن علاقة ، عن عمارة بن أوس ، قال : بينما نحن في الصلاة نحو بيت المقدس ، ونحن ركوع ، إذ نادى[٢] مناد بالباب : إن القبلة قد حوّلت إلى الكعبة . قال : فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحوّل هو والرجال والصبيان ، وهم ركوع نحو الكعبة(٨٨٨) .

وقوله : ﴿ وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ . أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض : شرقًا ، وغربًا ، وشمالاً ، وجنوبًا ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة ، وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلي باجتهاده ، وإن كان مخطئًا في نفس الأمر ؛ لأن اللّه تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

[**مسألة** وقد استدل المالكية بهذه الآية على أنّ المصلي ينظر أمامه ، لا إلى موضع [سجوده ، كما ذهب إليه الشافعي ، وأحمد ، وأبو حنيفة . قال المالكية : بقوله : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده ، لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وهو ينافي كمال القيام . وقال بعضهم : ينظر المصلي في قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضي : ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده ، كما قال جمهور الجماعة ؛ لأنه أبلغ في الخضوع ، وآكد في الخشوع ، وقد ورد به الحديث ، وأمّا في حال ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه ، وفي حال قعوده إلى حجره][٣] .

وقوله : ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾ أي : واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس ، يعلمون أن اللّه تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأمّته ، وما خصه[٤] اللّه تعالى

= (١٤/٢) : « فيه إسحاق بن إدريس الاسواري وهو ضعيف متروك » .

(٨٨٨) – **إسناده ضعيف** : والحديث في طبقات ابن سعد بمعناه (٣٨١/٤) . وقيس بن الربيع : ضعيف (المجروحين ٢١٦/٢) . وعمارة بن أوس : أورده في الإصابة (٥٧٧/٤) وقال : قال البخاري له صحبة ، وكذا قال ابن حبان وزاد : إني لست أعتمد على إسناده وحديثه . وأخرج ابن أبي خيثمة والبغوي من طريق قيس بن الربيع ، عن زياد بن علاقة .... فذكره بمعناه ، وقال : تفرد به قيس وهو ضعيف . وأخرجه الطبراني من رواية عبد الملك بن حسين ، عن زياد بن علاقة ، عن عمارة بن روبية اهـ . ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٣٥/١) عن شبابة عن قيس عن زياد به .

---

[١] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] – في خ : « أتى » .
[٣] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٤] – في ز : « حصه » .

به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسدًا وكفرًا وعنادًا ، ولهذا تهدّدهم[١] تعالى بقوله : ﴿ **وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ .

وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ، ما يعرفونه من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ ؛ ولهذا قال لههنا : ﴿ **ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وما أنت بتابع قبلتهم** ﴾ إخبار[٢] عن شدة متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم متمسكون[٣] بآرائهم وأهوائهم[٤] ؛ فهو أيضًا متمسك[٥] بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته ، وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، وما كان متوجهًا إلى بيت المقدس ؛ لكونها[٦] قبلة اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ، ثم حذر تعالى من مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ؛ فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره ، ولهذا قال مخاطبًا للرسول ، والمراد به[٧] الأمة : ﴿ **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذًا لمن الظالمين** ﴾ .

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا ، كما جاء في

---

[١] - في ز : « يهددهم » .
[٢] - في خ : « إخبارًا » .
[٣] - في ت : « مستمسكون » .
[٤] - في ز : « وأعوانهم » .
[٥] - في ت : « مستمسك » .
[٦] - في ز ، خ : « لأنها » .
[٧] - سقط من : ز ، خ .

الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل معه صغيرٌ : « **ابنكَ هذا ؟** » قال : نعم يا رسول الله ، أشهد به . قال : « **أما إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه** »(٨٨٩) .

[قال القرطبي : ويروى عن عمر ، أنه قال لعبد الله بن سلام : أتعرف محمدًا كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمّه .

قلت : وقد يكون المراد ﴿ **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمترى في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم][١] .

ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإيقان[٢] العلمي ﴿ **ليكتمون الحق** ﴾ أي : ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ . ثم ثَبّت تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، فقال : ﴿ **الحق من ربك فلا تكونن من الممترين** ﴾ .

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨)

قال العوفي ، عن ابن عباس : ﴿ **ولكلٍ وجهة هو موليها** ﴾ يعني بذلك أهل الأديان ، يقول: لكل [ ][٣] قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون .

وقال أبو العالية : لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم أيتها[٤] الأمّة إلى[٥] القبلة التي هي القبلة . وروي عن مجاهد وعطاء ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، والسدي نحو هذا .

---

(٨٨٩) - رواه أحمد في المسند ١٧٥٣٨ ، ١٧٥٣٩ - (١٦٣/٤) ، وأبو داود في السنن ، كتاب الديات ، باب : لا يؤخذ أحد بجريرة أخيه أو أبيه ، برقم (٤٤٩٥) ، والنسائي في القسامة ، باب : هل يؤخذ أحد بجريرة أحد ، برقم (٤٨٣٢) . والبيهقي في السنن الكبرى في كتاب الجنايات ، باب : إيجاب القصاص على القاتل دون غيره (٨٧/٨) . والدارمي في الديات ، باب : لا يؤاخذ أحد بجناية غيره (١٩٨/٢ - ١٩٩) . والحميدي في مسنده بنحوه حديث ٨٦٦ . وابن الجارود في المنتقى (٧٧٠) . وابن حبان كما في الموارد (٥٢٢) كتاب الديات ، باب : لا يجني أحد على أحد . وعبد الله بن أحمد في زوائده =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ر : الإتقان .
[٣] - في ر : قبيلة .
[٤] - في خ : « أيها » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .

وقال مجاهد في الرواية الأخرى [ ][١] : ولكن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة .

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر ﴿ **ولكلٍ وجهة هو مولاها** ﴾ .

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا [ولو شاء الله لجعلكم أمّة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم][٢] فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا** ﴾ .

وقال هاهنا : ﴿ **أينما تكونوا يأت بكم الله جميعًا إن الله على كل شيء قدير** ﴾ ، أي : هو قادر على جمعكم من الأرض ، وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم .

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض .

[وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات : فقيل : تأكيد ؛ لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره . وقيل : بل هو منزل على أحوال ؛ فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثاني لمن هو في مكة غائبًا عنها ، والثالث لمن هو في بقية البلدان . هكذا وجهه فخر الدين الرازي .

وقال القرطبي : الأوّل لمن هو بمكة ، والثاني : لمن هو في بقية الأمصار ، والثالث لمن خرج في الأسفار ورجح هذا الجواب القرطبي .

= على المسند (٢/٢٢٦ ، ٢٢٧) . من حديث أبي رمثة رضي الله عنه . وصححه الألباني في الإرواء (٧/ ٣٣٢) حديث (٢٣٠٣) .

ورواه ابن ماجه - من حديث الخشخاش العنبري - رضي الله عنه - في الديات ، باب : لا يجني أحد على أحد برقم (٢٦٧١) . وقال في الزوائد إسناده كلهم ثقات إلا أن هشيماً كان يدلس ، وليس للخشخاش سوى هذا الحديث الموجود عند ابن ماجه ، وليس له في بقية الأصول الخمسة .

[١] - في ر : والحسن .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

وقيل : إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله ، أو بعده من السياق ، فقال أوّلا : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما اللّه بغافل عما يعملون** ﴾ فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها ، وقال في الأمر الثاني : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما اللّه بغافل عما تعملون** ﴾ فذكر أنه الحق من اللّه ، وارتقاءه المقام الأوّل ؛ حيث كان موافقًا لرضا الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فبين أنه الحق أيضًا من اللّه يحبه ويرتضيه .

وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول صلى اللّه عليه وسلم عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف ، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها.

وقيل غير ذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار . وقد بسطها الرازي وغيره ، واللّه أعلم][١] .

وقوله : ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ أي : أهل الكتاب ، فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ، أو[٢] لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلي بيت المقدس . وهذا أظهر .

قال أبو العالية : ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ يعني به أهل الكتاب حين قالوا : صرف محمد إلى الكعبة ، وقالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . وكان حجتهم على النبي صلى اللّه عليه وسلم انصرافه[٣] إلى البيت الحرام أن قالوا : سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا .

قال ابن أبي حاتم(٨٩٠) : وروي عن مجاهد ، وعطاء ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والسدّي نحو هذا . وقال هؤلاء في قوله: ﴿ **إلّا الذين ظلموا منهم** ﴾ يعني مشركي قريش.

ووجه بعضهم حجة الظَّلَمةِ - وهي داحضة - أن قالوا : إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم ، فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم ، فلِمَ رجع عنه ؟ والجواب : أن اللّه

---

(٨٩٠) - ابن أبي حاتم ١٣٨٩ - (٢٥٩/١) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - في ت : « و » .
[٣] - في خ : « الصرافة » .

تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أوّلًا لما له تعالى في ذلك من الحكمة ، فأطاع ربه تعالى في ذلك ، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة ، فامتثل أمر اللَّه في ذلك أيضًا ، فهو - صلوات اللَّه وسلامه عليه - مطيع للَّه في جميع أحواله ، لا يخرج عن أمر اللَّه طرفة عين، وأمّته تبع له .

وقوله : ﴿ **فلا تخشوهم واخشوني** ﴾ أي : لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين ، وأفردوا الخشية لي ؛ فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه .

وقوله : ﴿ **ولأتم نعمتي عليكم** ﴾ عطف على ﴿ **لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ أي[١] : ولأتم نعمتي عليكم فيما شرعت[٢] لكم من استقبال الكعبة ؛ لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿ **ولعلكم تهتدون** ﴾ أي : إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به ؛ ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى اللَّه عليه وسلم إليهم ، يتلو عليهم آيات اللَّه مبينات ، ويزكيهم ، أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ، ودنس النفوس، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب : وهو[٣] القرآن ، والحكمة : وهي السنة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون . فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الفرى[٤] ، فانتقلوا ببركة رسالته ، ويمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء ، فصاروا أعمق الناس علمًا ، وأبرّهم قلوبًا ، وأقلهم[٥] تكلفًا ، وأصدقهم[٦] لهجة ، وقال تعالى : ﴿ **لقد منّ اللَّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا [من أنفسهم][٧] يتلو عليهم آياته ويزكيهم** ﴾ الآية . وذمَّ من لم يعرف قدر هذه النعمة ، فقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة اللَّه كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ .

قال ابن عباس : يعني [بنعمة اللَّه][٨] محمدًا صلى اللَّه عليه وسلم ؛ ولهذا ندب اللَّه المؤمنين

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز ، خ : « شرعته » .
[٣] - في خ : « وهى » .
[٤] - في خ : « الفراء » .
[٥] - في ز ، خ : « وأقلها » .
[٦] - في ز ، خ : « وأصدقها » .
[٧] - في ز ، خ : منهم .
[٨] - سقط من : ز ، خ .

إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره . فقال : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ .

قال مجاهد في قوله : ﴿ **كما أرسلنا فيكم [رسولاً منكم]**[١] ﴾ يقول : كما فعلت فاذكروني .

قال عبد الله بن وهب : عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم : أن موسى عليه السلام قال : يا رب ، كيف أشكرك ؟ قال له ربه : « **تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني** » .

وقال الحسن البصري ، وأبو العالية ، والسدي ، والربيع بن أنس : إن الله يذكر من ذكره ، ويزيد من شكره ، ويعذب من كفره .

وقال بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾ قال : هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر .

وقال ابن أبي حاتم(٨٩١) : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، أخبرنا يزيد بن هارون ، أخبرنا عمارة الصيدلاني، حدثنا مكحول الأزدي قال : قلت لابن عمر : أرأيت قاتل النفس ، وشارب الخمر ، والسارق ، والزاني يذكر الله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ ؟! قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته ، حتى يسكت .

وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ قال : اذكروني فيما أوجبت[٢] عليكم ، أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي .

وعن سعيد بن جبير ، اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ، وفي رواية : برحمتي .

وعن ابن عباس في قوله : ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ قال : ذكر الله إياكم أكبر[٣] من ذكركم إياه .

وفي الحديث الصحيح(٨٩٢) « **يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ،**

(٨٩١) - ابن أبي حاتم ١٣٩٧ - (١/ ٢٦٠) ، وعمارة بن زاذان الصيدلاني - قال ابن عدي (٥/ ٨٠) : وهو عندي لا بأس به ممن يكتب حديثه . وفي التاريخ الكبير (٦/ ٥٠٥) : ربما يضطرب في حديثه . وأورده العقيلي في الضعفاء وذكر قول البخاري . وقال الحافظ : صدوق كثير الخطأ .

(٨٩٢) - رواه البخاري في التوحيد برقم (٧٤٠٥) ، ومسلم في التوبة والذكر والدعاء برقم (٢٦٧٥) .

[١] - سقط من : ز . [٢] - في ز ، خ : « أفترضت » .

[٣] - في ز : « أكثر » .

ومن ذكرني في ملإٍ ذكرته في ملإٍ خير منه » .

قال الإمام أحمد(٨٩٣) : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة ، عن أنس قال[١] : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : « **قال اللَّه - عز وجل - : يا بن آدم ؛ إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملإٍ ذكرتك في ملإٍ من الملائكة - أو قال في[٢] ملإٍ خير منه[٣] - وإن دنوت مني شبرًا دنوت منك ذراعًا ، وإن دنوت مني ذراعًا دنوت منك باعًا ، وإن أتيتني تمشي أتيتك أهرول** » .

صحيح الإسناد . أخرجه البخاري من حديث قتادة . وعنده قال قتادة : اللَّه أقرب بالرحمة .

وقوله تعالى : ﴿ **واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ أمر اللَّه تعالى بشكره ، ووعد على شكره بمزيد الخير ، فقال : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد** ﴾ .

وقال الإمام أحمد(٨٩٤) : حدّثنا روح ، حدّثنا شعبة ، عن الفضيل بن فضالة ، رجل من قيس - حدّثنا أبو رجاء العطاردي ، قال : خرج علينا عمران بن حصين[٤] ، وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده ، فقال : إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال : « **من أنعم اللَّه عليه نعمة فإن اللَّه يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه** » ، وقال روح مرة : « **على عبده** ».

(٨٩٣) - المسند ١٢٢٥٤ ، ١٢٤٢٧ - (٣/ ١٢٢ ، ١٣٨) ، ورواه البخاري في التوحيد ، باب : ذكر النبي صلى اللَّه عليه وسلم وروايته عن ربه حديث (٧٥٣٦) .

(٨٩٤) - المسند ١٩٩٨٨ - (٤٣٨/٤) . والفضيل بن فضالة القيسي : صدوق . والحديث أخرجه الطبراني في « المعجم الكبير » : برقم : (٢٨١) (١٣٥/١٨) ، ورقم (٤١٨) ، (١٨١/١٨) . والبيهقي في « شعب الإيمان » برقم : (٦٢٠٠) (١٦٣/٥) . وابن سعد في « الطبقات الكبرى » : (٧/٧) . من طريق الفضيل بن فضالة ، عن أبي رجاء العطاردي ، عن عمران بن حصين : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « **إن الله إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته عليه** » اهـ . وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » : (١٣٥/٥) وقال : رواه أحمد والطبراني ، ورجال أحمد ثقات اهـ .

وله شاهد من حديث أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة : عن أبيه مرفوعًا : رواه أحمد (٤٧٣/٣) .

وله شاهد آخر من حديث أبي هريرة . أخرجه البيهقي في « شعب الإيمان » برقم : (٦٢٠٢) ، (٥/ ١٦٣) .

وذكره الشيخ الألباني (حفظه الله) في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » برقم : (١٢٩٠) ، (٢٨٠/٣-٢٨١) . من طريق **مفضل بن فضالة** عن أبي رجاء العطاردي عن عمران به . وقد ضعفه من هذا الطريق فقال : قلت : وهذا إسناد ضعيف ، رجاله ثقات غير المفضل هذا وهو ابن أبي أمية أبو مالك البصري ، أخو سبارك ضعيف . اهـ . وصححه بشواهده .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ز : « منهم » .
[٤] - في خ : « الحصين » .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ (١٥٤) ﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الصبر، والإرشاد إلى[١] الاستعانة بالصبر والصلاة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها، أو في نقمة فيصبر عليها؛ كما جاء في الحديث: « **عجبًا للمؤمن! لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له؛ إن أصابته سراء فشكر، كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر، كان خيرًا له** ».

وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة، كما تقدّم في قوله: ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾. وفي الحديث أن[٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم كان[٣] إذا حزبه[٤] أمر صلى(٨٩٥).

والصبر صبران: فصبر على ترك المحارم والمآثم، وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثوابًا؛ لأنه المقصود، [ ][٥]. كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر[٦] لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء؛ فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله.

وقال علي بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي منادٍ: أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عنق من الناس، فتتلقاهم الملائكة، فيقولون: إلى أين يا بني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة. فيقولون: قبل[٧] الحساب؟ قالوا: نعم. قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: نحن[٨] الصابرون. قالوا: وما كان صبركم؟ قالوا: صبرنا على طاعة الله، وصبرنا عن معصية الله، حتى توفّانا الله. قالوا: أنتم كما قلتم، ادخلوا الجنة، فنعم أجر العاملين.

(٨٩٥) - رواه أبو داود في كتاب الصلاة باب: وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل برقم (١٣١٩) من حديث عبد العزيز ابن أخي حذيفة عن حذيفة رضي الله عنه. وقال المنذري: ذكر بعضهم أنه روي مرسلاً. ورواه أحمد في المسند ٢٣٤٠٦ - (٣٨٨/٥) وتقدم الكلام عليه (٢٢٧).

[١] - في ر: و.
[٢] - في ز، خ: « كان ».
[٣] - سقط من: ز، خ.
[٤] - في خ: « حزنه ».
[٥] - في ر: [وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب، فذاك أيضًا واجب كالاستغفار من المعايب].
[٦] - في خ: « وصبر ».
[٧] - في ز: وقبل.
[٨] - سقط من: ز.

(قلت) : ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ **إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ .

وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد للَّه بما أصاب منه ، واحتسابه عند اللَّه رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل اللَّه أموات بل أحياء** ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء في صحيح مسلم(٨٩٦) : « **أنّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعَةً ، فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا ! وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك ؟ ثم عاد إليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردّنا إلى الدار الدنيا ، فنقاتل في سبيلك ، حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب - جل جلاله - : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون** » .

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد(٨٩٧) ، عن الإمام الشافعي ، عن الإمام مالك ، عن الزهري ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك ، عن أبيه قال : قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: « **نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة ، حتى يرجعه اللَّه إلى جسده يوم يبعثه** » .

ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضًا ، وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفًا لهم ، وتكريمًا ، وتعظيمًا .

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

---

(٨٩٦) - صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، رقم ١٢١ - (١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه - وساقه ابن كثير رحمه الله تعالى بمعناه .

(٨٩٧) - المسند ١٥٨٢٠ - (٤٥٥/٣) و١٥٨١٨ ، ١٥٨١٩ . والحديث أخرجه النسائي في كتاب الجنائز ، باب : أرواح المؤمنين عن قتيبة ٢٠٧٣ - (٤ / ١٠٨) . وابن ماجه عن سويد بن سعيد (٢ / ١٤٢٨) حديث (٤٢٧١) . كلاهما عن مالك به . وسيأتي عند تفسير (آية ١٦٩ آل عمران) وسيأتي قول الحافظ ابن كثير رحمه الله : وهو بإسناد صحيح عزيز عظيم اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة .

أخبر تعالى أنه يبتلي عباده : أي يختبرهم ويمتحنهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** ﴾ ، فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع ، كما قال تعالى : ﴿ **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾ فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ؛ ولهذا قال : لباس الجوع والخوف . وقال هاهنا : ﴿ **بشيء من الخوف والجوع** ﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ **ونقص من الأموال** ﴾ أي : ذهاب بعضها ﴿ **والأنفس** ﴾ كموت الأصحاب ، والأقارب ، والأحباب ﴿ **والثمرات** ﴾ أي : لا تُغِل الحدائق والمزارع كعادتها ، كما قال بعض السلف : فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده؛ فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحل به عقابه ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **وبشر الصابرين** ﴾ .

وقد حكي بعض المفسرين أن المراد من الخوف هاهنا خوف الله ، وبالجوع صيام رمضان ، وبنقص[١] الأموال : الزكاة ، والأنفس : الأمراض . والثمرات : الأولاد .

وفي هذا نظر ، والله أعلم .

ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم ، فقال : ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ أي : تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرّة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده ، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة ؛ ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك ، فقال : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة**[٢] ﴾ أي : ثناء من الله عليهم ورحمة[٣] . قال سعيد بن جبير : أي : أمنة من العذاب .

﴿ **وأولئك هم المهتدون** ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة** ﴾ فهذان العدلان ﴿ **وأولئك هم المهتدون** ﴾ فهذه العلاوة ، وهي ما توضع بين العدلين ، وهي زيادة في الحمل ، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضًا .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع ، وهو قول الله[٤] : ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد(٨٩٨) [حيث قال][٥] :

---

(٨٩٨) - صحيح ، والحديث في المسند ١٦٣٩٣ - (٢٧/٤) .

---

[١] - في ز ، خ : « ونقص » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - سقط من : ت .
[٥] - سقط من : ز ، خ .

حدّثنا يونس [بن محمد][١] ، حدثنا ليث - يعني ابن سعد[٢] - عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد ، عن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب[٣] ، عن أم سلمة ؛ قالت : أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولًا سررت به . قال : « **لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبةٌ فيسترجع عند مصيبته ، ثم يقول : اللهم أجُرْني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها ، إلا فعل ذلك به** » ، قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت : اللهم ؛ أجرْني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منه[٤] ، ثم رجعت إلى نفسي فقلت من أين لي خير[٥] من أبي سلمة ؟ فلما انقضت عدّتي استأذن عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا أدبغ إهابًا لي ، فغسلت يدي من القرَظ ، وأذنت له ، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف ، فقعد عليها ، فخطبني إلى نفسي ، فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ، ما بي ألّا يكون بك الرغبة، ولكني امرأة فيَّ غيرةٌ شديدة ، فأخاف أن ترى مني شيئًا يعذبني الله به ، وأنا امرأة قد دخلت في السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : « **أمّا ما ذكرت من الغيرة ، فسوف يذهبها الله عز وجل عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي** » . قالت : فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت أم سلمة بعد : أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه - رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

وفي صحيح مسلم(٨٩٩) ، عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « **ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ اللهم ؛ أجرْني في مصيبتي ، واخلف لي خيرًا منها ، [إلا آجره الله في مصيبته ، وأخلف له خيرًا منها** »][٦] . قالت فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخلف الله لي خيرًا منه - رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الإمام أحمد(٩٠٠) : حدّثنا يزيد وعباد بن عباد ، قالا : حدثنا هشام بن أبي هشام ،

---

(٨٩٩) - مسلم في كتاب الجنائز ، باب : ما يقال عند المصيبة ، من طريق يحيى بن أيوب ، وقتيبة ، وابن حجر ، عن إسماعيل بن جعفر ، عن سعد بن سعيد ، عن عمر بن كثير بن أفلح ، عن ابن سفينة ـ عن أم سلمة به نحوه . (٣١٢/٦) حديث (٣ - ٩١٨) . وحديث (٤ ، ٥ - ٩١٨) .

(٩٠٠) - إسناده ضعيف جداً والحديث في المسند ١٧٣٤ - (٢٠١/١) . هشام بن أبي هشام هو هشام بن زياد : متروك ، ضعفه البخاري ، والنسائي ، وابن معين . وأمه لا يعرف من هي . وقوله : حدثنا عباد =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٢] - في خ : « أسعد » .
[٣] - في خ : « المطلبي » .
[٤] - في ت : « منها » .
[٥] - في ز ، خ : « خيرًا » .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .

[حدثنا][1]عباد بن زياد ، عن أمه ، عن فاطمة بنة الحسين ، عن أبيها الحسين بن علي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال : « **ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة ، فيذكرها وإن طال عهدها** – وقال عباد : **قدم عهدها – فيحدث لذلك استرجاعًا ، إلّا جدّد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب** » .

ورواه ابن ماجة(٩٠١) في « سننه » ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن وكيع ، عن هشام بن[2] زياد ، عن أمه ، عن فاطمة بنت الحسين ، عن أبيها .

وقد رواه إسماعيل بن علية ، ويزيد بن هارون ، عن هشام بن[3] زياد ، عن أبيه (كذا)[4] ، عن فاطمة ، عن أبيها .

وقال الإمام أحمد(٩٠٢) : حدثنا يحيى بن إسحاق السالحيني ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن أبي سنان ؛ قال : دفنت ابنًا لي ، فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة – يعني الخولاني – فأخرجني ، وقال لي[5] : ألا أبشرك . قلت : بلىٰ . قال : حدثني الضحاك بن عبد الرحمن ابن[6] عرزب ، عن أبي موسى ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **قال الله : يا ملك الموت ؛ قبضت ولد عبدي ؛ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده . قال :** [**نعم . قال**][7] : **فماذا**[8] **قال ؟ قال :**

ابن زياد : صوابه : قال عباد : ابن زياد . أي أن عباد بن عباد حين سمى شيخه ذكر اسم أبيه لا كنيته . وأما يزيد بن هارون فذكر الكنية فقط . **وانظر الحديث التالي**

(٩٠١) – **إسناده ضعيف جداً** والحديث في سنن ابن ماجة ، في الجنائز ، باب : ما جاء في الصبر على المصيبة برقم (١٦٠٠) وقال البوصيري في الزوائد (٥٢٨/١) : هذا إسناد فيه هشام بن زياد وهو ضعيف ، هكذا رواه ابن أبي شيبة في مسنده ، ورواه أحمد بن منيع في مسنده : حدثنا يزيد ، أنبأ هشام بن أبي هشام ، عن أمه ، عن فاطمة بنت الحسين .... فذكره بإسناده ومعناه ، وقد اختلف النسخ : هل هو عن أبيه أو عن [عمه] – كذا في الزوائد – ولا يعرف لهما حال .

ورواه يعقوب بن إبراهيم الدورقي عن ابن علية ، عن هشام بن زياد ، عن أبيه ، عن فاطمة ، وتابعه أحمد ابن أبي السرح ، عن يزيد بن هارون ، عن هشام .

(٩٠٢) – **حسن** ، والحديث في المسند برقم ١٩٧٧٩ – (٤١٥/٤) . وأخرجه الترمذي في كتاب الجنائز ، باب : فضل المصيبة إذا احتسب ، حديث (١٠٢١) (٣٤١/٣) . وعبد بن حميد (٥٥١) . وابن حبان في كتاب الجنائز ، باب : ما جاء في الصبر وثواب الأمراض ، حديث (٢٩٤٨) (٧٢١٠) . ونعيم بن حماد في زوائد الزهد لابن المبارك (١٠٨) . كلهم من طريق حماد بن سلمة به. وقال الترمذي : حسن غريب . =

---

[١] – صوابه : قال ..
[٢] – في ز : « عن » .
[٣] – في خ : « عن » .
[٤] – سقط من : خ .
[٥] – سقط من : ز ، خ .
[٦] – في ز ، خ : « عن » .
[٧] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٨] – في ز : « فما » .

حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد » .

ثم رواه عن علي بن إسحاق ، عن عبد الله بن المبارك ، فذكره .

وهكذا رواه الترمذي ، عن سويد بن نصر ، عن ابن المبارك به ، وقال : حسن غريب . واسم أبي سنان عيسى بن سنان .

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمي ، أخبرنا إبراهيم بن سعد ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة ؛ قالت : قلت : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما** ﴾ . قلت : فوالله ما على أحد جناح ألا[١] يتطوّف بهما . فقالت عائشة : بئسما قلت يا بن أختي ؛ [إنها لو كانت][٢] على ما أوّلتها[٣] عليه ، كانت فلا جناح عليه ألّا[٤] يطوّف بهما ، ولكنها إنما أنزلت ؛ أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا [ ][٥] يهلون لمناة الطاغية ، التي كانوا يعبدونها عند المشلل[٦] ؛ وكان من أهلَّ لها يتحرّج أن يطوّف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

= وعزاه الألباني في الصحيح (٣٩٨/٣) للثقفي في « الثقفيات » (٢/١٥/٣) . عن عبدالحكم بن ميسرة الحارثي أبي يحيى : ثنا سفيان عن علقمة بن مرثد عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري مرفوعًا . وقال : غريب من حديث الثوري لا أعرفه إلا من هذا الوجه ، ورواه الضحاك بن عبد الرحمن ابن عرزب وغيره عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه . وحسنه الألباني بمجموع الطرق انظر الصحيحة (١٤٠٨) .

(٩٠٣) - المسند ٢٥٢٢٣ - (١٤٤/٦) ، وأخرجه البخاري في كتاب الحج ، باب : وجوب الصفا والمروة وجعل من شعائر الله (رقم : ١٦٤٣) وأطرافه في (١٧٩٠ ، ٤٤٩٥ ، ٤٨٦١) . ومسلم في كتاب الحج ، (رقم : ١٢٧٧) . وأبو داود في كتاب المناسك ، باب : أمر الصفا والمروة . (١٨١/٢ - ١٨٢/ رقم : ١٩٠١) . والترمذي في كتاب تفسير القرآن ، باب : ومن سورة البقرة (رقم : ٢٩٦٥) . والنسائي في كتاب مناسك الحج ، باب : ذكر الصفا والمروة (٢٣٧/٥ - ٢٣٩) . وابن ماجة في كتاب المناسك ، باب : السعي بين الصفا والمروة (رقم : ٢٩٨٦) . كلهم من طريق عروة به .

[١] - في خ : « أن » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٣] - في ز ، خ : « أولها » .
[٤] - في خ : « أن » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « كانوا » .
[٦] - المشلل : بضم الميم وفتح الشين وتشديد اللام الأولى وفتحها : موضع بين مكة والمدينة . نهاية [٤/ ٣٣٤] .

فقالوا: يا رسول الله ؛ إنا كنا نتحرّج أن نطوّف بالصفا والمروة في الجاهلية . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** [**فمن حج البيت أو اعتمر**][١] **فلا جناح عليه أن يطوّف بهما** ﴾ ، قالت عائشة : ثم قد سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما . فليس لأحد أن يدع الطواف بهما ، أخرجاه في الصحيحين(٩٠٣) .

وفي رواية عن الزهري أنه قال : فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، فقال لي[٢] : [إن هذا][٣] العلم ماكنت سمعته ، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون : إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون : إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة ، فأنزل الله تعالى ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء .

ورواه البخاري(٩٠٤) من حديث مالك ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة بنحو ما تقدم .

ثم قال البخاري(٩٠٥) : حدّثنا محمد بن يوسف ، حدّثنا سفيان ، عن عاصم بن سليمان ؛ قال : سألت أنسًا عن الصفا والمروة .. قال : كنا نرى أنهما[٤] من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ .

[وذكر القرطبي في تفسيره عن ابن عباس قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله ، وكانت بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطواف بينهما فنزلت هذه الاية .

وقال الشعبي : كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما ، فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية .

(قلت) ذكر محمد بن إسحاق في كتاب السيرة أن إسافًا ونائلة كانا بشرين ، فزنيا داخل الكعبة ، فمسخا حجرين ، فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبدا ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك ، فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ؛ ولهذا][٥]

(٩٠٤) - صحيح البخاري (٤٤٩٥) .
(٩٠٥) - صحيح البخاري برقم (٤٤٩٦) .

---

[١] - في خ : « إلى قوله تعالى » .
[٢] - سقط من : ت .
[٣] - في ز ، خ : « وهذا » .
[٤] - في ز : « ذلك » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[يقول أبو طالب في قصيدته المشهورة :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم لمفضَي السيول من إساف ونائل][١]

وفي « صحيح مسلم(٩٠٦) » من[٢] حديث جابر الطويل ، وفيه : أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ من طوافه بالبيت ، عاد إلى الركن ، فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا ، وهو يقول : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ . ثم قال : « أبدأ بما بدأ الله به » وفي رواية النسائي « ابدءوا بما بدأ الله به » .

وقال الإمام أحمد(٩٠٧) : حدّثنا سريج ، حدّثنا عبد الله بن المؤمل ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن صفية بنت شيبة ، عن حبيبة بنت أبي تَجْرَاة ، قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بين الصفا والمروة ، والناس بين يديه ، وهو وراءهم ، وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره ، وهو يقول : « اسعَوا فإن الله كتب عليكم السعي » .

ثم رواه الإمام أحمد(٩٠٨) ، عن عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن واصل مولى أبي عيينة ، عن موسى بن عُبَيدة ، عن صفية بنت شيبة ، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة يقول : « كتب عليكم السعيُ ، فاسعَوا » .

---

(٩٠٦) - مسلم ، كتاب الحج ، برقم ١٤٧ - (١٢١٨) .

(٩٠٧) - إسناده ضعيف والحديث في المسند ٢٧٤٧٥ ، ٢٧٤٧٤ - (٤٢١/٦) . ورواه الدارقطني من حديث يونس بن محمد ، ومعاذ بن هانئ ، عن ابن المؤمل ، عن عبدالله بن الحصين ، عن عطاء ، عن صفية بنت شيبة ، عن حبيبة (٢٥٥/٢) . والحديث رواه الشافعي ، وإسحاق بن راهويه والحاكم وسكت عنه . وأعله ابن عدي في الكامل بابن المؤمل وأسند تضعيفه عن أحمد والنسائي وابن معين . ورواه الدارقطني من حديث الواقدي عن علي بن محمد العمري عن منصور الحجبي عن أمه عن برة بنت أبي تجزأة . والواقدي : متروك .

قال ابن أبي حاتم في العلل (٢٦٩/١) : سألت أبي عن حديث رواه سعيد بن سليمان ، عن عبد الله بن المؤمل ، عن عطاء ، عن صفية بنة شيبة ، عن حبيبة بنة أبي تجزأة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في السعي بين الصفا والمروة . قال أبي : رواه غير سعيد ، عن عبد الله بن المؤمل ؛ فقال : عن عمر بن عبد الرحمن بن محيض ، عن صفية بنة شيبة ، عن حبيبة بنة أبي تجزأة وأما الشافعي فروى عن ابن المؤمل ، عن عمر بن عبد الرحمن بن محيض ، عن عطاء ، عن صفية بنت شيبة ، عن حبيبة بنت أبي تجزأة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والحديث رواه الطبراني في الكبير (٢٤ / ٢٢٦) برقم (٥٧٣) : قال : ثنا عبد الله ، ثنا أبي ، عن الشافعي ، ثنا عبد الله بن المؤمل به « وجعله عن صفية بنت شيبة عن حبيبة به »

(٩٠٨) - المسند ٢٧٥٧٠ - (٤٣٧/٦) . وإسناده ضعيف لضعف موسى بن عبيدة .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - سقط من : ز ، خ .

وقد استدل بهذا الحديث على مذهب[١] من يرى أن[٢] السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج ، كما هو مذهب الشافعي ، ومن وافقه ، [ورواية عن أحمد ، وهو المشهور عن مالك][٣] . وقيل : إنه واجب وليس بركن . [فإن تركه عمدًا أو سهوًا جبره بدم ، وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة][٤] . وقيل : بل مستحب [وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين ، وروي عن أنس وابن عمر وابن عباس ، وحكي عن مالك في العتبية . قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **فمن تطوع خيرًا** ﴾][٥] . والقول الأول أرجح ؛ لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال : « **لتأخذوا عني مناسككم** » ، فكل ما فعله في حجته تلك واجب لابد من فعله في الحج ، إلا ما خرج بدليل ، والله أعلم .

[وقد تقدم قوله - عليه السلام - « **اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي** »][٦] فقد بيّن الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أي : مما شرع الله تعالى لإبراهيم الخليل في مناسك الحج ، وقد تقدم في حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من تطواف[٧] هاجر وتَرْدادها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها لما نَفَد ماؤهما وزادهما ، حين تركهما إبراهيم - عليه السلام - هنالك ، وليس[٨] عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ، ونفد ما عندهما قامت تطلب الغوث من الله - عز وجل - فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها ، وآنس غربتها ، وفرج شدتها ، وأنبع لها زمزم التي ماؤها « **طعام طُعْم ، وشفاء سُقْم** » ، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذُلَّه وحاجته إلى الله في هداية قلبه ، وصلاح حاله ، وغفران ذنبه ، وأن يلتجئ إلى الله - عز وجل - ليزيح ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط[٩] المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر ، عليها السلام .

[وقوله : ﴿ **فمن تطوع خيرًا** ﴾ قيل : زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ؛ ثامنة وتاسعة ونحو ذلك .

وقيل : يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع . وقيل : المراد تطوع خيرًا في سائر

---

[١] - في ز : « من يذهب » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٧] - في ت : « طواف » .
[٨] - في ز ، خ : « ليس » .
[٩] - في ز : « صراطه » .

العبادات . حكى ذلك الرازي وعزى الثالث إلى الحسن البصري ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ **فإن الله شاكر عليم** ﴾ أي : يثيب على القليل بالكثير ، ﴿ **عليم** ﴾ بقدر الجزاء فلا يبخس أحدًا ثوابه و﴿ **لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا** ﴾][١] .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله .

قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالِم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء والطير في الهواء ، فهؤلاء بخلاف العلماء ، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون .

وقد ورد في الحديث المسند(٩٠٩) من طرائق[٢] يشد بعضها بعضًا ، عن أبي هريرة ، وغيره ؛ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « **من سئل عن علم ، فكتمه ، أُلجم يوم القيامة بلجام من نار** » .

والذي في الصحيح(٩١٠) عن أبي هريرة أنه قال : لولا آية في كتاب الله ما حدّثت أحدًا شيئًا : ﴿ **إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا**[٣] **من البينات والهدى** ﴾. الآية .

وقال ابن أبي حاتم(٩١١) : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا عمار بن محمد ، عن ليث بن أبي

(٩٠٩) - المسند (٢/٢٦٣ ، ٣٠٥ ، ٣٥٣ ، ٣٤٤ ، ٢٩٦ ، ٤٩٥) .

(٩١٠) - صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب : حفظ العلم برقم (١١٨) .

(٩١١) - رواه ابن أبي حاتم ١٤٤٤ - (١/٢٦٩) . وإسناده ضعيف .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - في ز ، خ : « طرق » .

[٣] - في خ : « أنزل الله » .

سليم ، عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان - أبي[١] عُمَر - عن البراء بن عازب ؛ قال : كنا مع النبي صلى اللّه عليه وسلم في جنازة ، فقال : « **إنّ الكافر يضرب ضربة بين عينيه فيسمع صوته كل دابة غير الثقلين ، فتلعنه كل دابة سمعت صوته ، فذلك قول اللّه تعالى : ﴿ أولئك يلعنهم اللّه ويلعنهم اللاعنون ﴾** » يعني : دواب الأرض .

[ورواه ابن ماجة(٩١٢) ، عن محمد بن الصباح ، عن [عمار][٢] بن محمد به][٣].

وقال عطاء بن أبي رباح : كل دابة والجنّ والإنس .

وقال مجاهد : إذا أجدبت الأرض قالت[٤] البهائم : هذا من أجل عصاة بني آدم لعن اللّه عصاة بني آدم .

وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة : ﴿ **ويلعنهم اللاعنون** ﴾ : [ ][٥] يعني تلعنهم ملائكة اللّه والمؤمنون .

[وقد جاء في الحديث : « **أنّ العالم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر** »(٩١٣) . وجاء في هذه الآية أنّ كاتم العلم يلعنه اللّه والملائكة والناس أجمعون ، واللاعنون أيضًا وهم كل فصيح وأعجمي ؛ إمّا بلسان المقال أو الحال] أو كل من كان له عقل يوم القيامة ، [واللّه أعلم][٦] .

ثم استثنى اللّه تعالى من هؤلاء من تاب إليه ، فقال : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا** ﴾ أي : رجعوا عما كانوا فيه ، وأصلحوا أعمالهم [وأحوالهم][٧] ، وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه[٨] ﴿ **فأولئك أتوب عليهم وأنا التوّاب الرحيم** ﴾ . وفي هذا دلالة على أنّ الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى اللّه تاب اللّه عليه .

وقد ورد أنّ الأمم السابقة[٩] لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ، ولكن هذا من شريعة

---

(٩١٢) - لم نقف عليه في سنن ابن ماجه .

(٩١٣) - رواه الدارمي في المقدمة باب : في فضل العلم والعالم برقم (٣٤٣) ولفظه : « **معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر** » .

---

[١] - في ز : « بن » .
[٢] - في خ : عامر .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ر .
[٤] - في خ : « قال » .
[٥] - في ز : « يلعنهم »
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٧] - زيادة من ر
[٨] - في ز ، خ : « كتموه »
[٩] - في ز ، خ « السالفة »

نبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه .

ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمرّ به الحال إلى مماته بأنّ ﴿ **عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها** ﴾ أي : في اللعنة التابعة[١] لهم إلى يوم القيامة ، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿ **لا يخفف عنهم العذاب** ﴾ فيها ، أي : لا[٢] ينقص عما هم فيه ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ أي : لا يغير عنهم ساعة واحدة ، ولا يفتر بل هو متواصل دائم ، فنعوذ بالله من ذلك .

وقال أبو العالية وقتادة : إنّ الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ، ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه[٣] الناس أجمعون .

[فصل

لا خلاف في جواز لعن الكفار ، وقد كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره ، فأمّا الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن ؛ لأنا لا ندري بما يختم الله له ، واستدل بعضهم بالآية ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ . وقالت طائفة أخرى : بل يجوز لعن الكافر المعين . واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي . ولكنه احتج بحديث فيه ضعف ، واستدل غيره بقوله - عليه السلام - في قصة الذي كان يؤتى به سكران ، فيحدّه ، فقال رجل : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله** »(٩١٤) ، فدل على أنّ من لا يحب الله ورسوله يلعن ، والله أعلم][٤] .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تفرّده بالإلهية ، وأنه لا شريك له ، ولا عديل له ، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم . وقد تقدّم تفسير هذين الاسمين في أوّل الفاتحة[٥] ، وفي الحديث عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد بن السكن ، عن رسول الله

(٩١٤) - رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الحدود ، باب : ما يكره من لعن شارب الخمر ، وإنه ليس بخارج من الملة برقم (٦٧٨٠) من حديث عمر رضي الله عنه .

[١] - في ز : « البالغة » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « تلعنه » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « السورة » .

صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال : « اسم اللَّه الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ و﴿ الم اللَّه لا إله إلا هو [الحي القيوم][١] ﴾ »(٩١٥) . ثم ذكر الدليل على تفرّده بالإلهية [بتفرده][٢] بخلق السموات والأرض وما فيهما ، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته ، فقال :

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى : ﴿ إنّ في خلق السموات والأرض ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها[٣] واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها[٤] وانخفاضها وجبالها ، وبحارها وقفارها ، وَوِهَادها وعُمْرانها ، وما فيها من المنافع ، واختلاف الليل والنهار ، هذا يجيء ثم يذهب ، ويخلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة ، كما قال تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ وتارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان[٥] ، كما قال تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي : يزيد من هذا في هذا ، ومن هذا في هذا ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ أي : في تسخير البحر لحمل السفن من جانب إلى جانب لمعاش الناس ، والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿ وما أنزل اللَّه من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون ﴾ إلى قوله : ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ .

---

(٩١٥) – رواه أحمد (٦/٤٦١) وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب : الدعاء برقم (١٤٩٦) ، والترمذي في الدعوات ، باب : جامع الدعوات برقم (٣٤٧٨) ، وابن ماجه في الدعاء ، باب : اسم الله الأعظم حديث (٣٨٥٥) – وابن أبي شيبة (١٠/٢٧٢) والدارمي (٢/٤٥٠) وابن أبي حاتم ١٤٦٠ – (١/٢٧٢) والطبراني في الدعاء (١١٣) ، وفي الكبير (٢٤/١٧٤) – جميعهم من طريق عبيد الله بن أبي زياد القداح – ليس بالقوي – عن شهر – صدوق كثير الإرسال والأوهام – به . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » .

---

[١] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] – زيادة من ز .
[٣] – سقط من : ز ، خ . [٤] – سقط من : ز ، خ .
[٥] – في خ : « يتعارضان » ، وفي ز : « يتقارضان » .

﴿ **وبث فيها من كل دابة** ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه ، لا يخفى عليه [شيء من ذلك][١] ، كما قال تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين** ﴾ .
﴿ **وتصريف الرياح** ﴾ أي : فتارة[٢] تأتي بالرحمة وتارة تأتي بالعذاب ، و[٣]تارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه ، وتارة تجمعه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، [ثم تارة تأتي من الجنوب - وهي الشامية - وتارة تأتي من ناحية اليمن ، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة وتارة دبورًا وهي غربية تفد من ناحية دبر الكعبة . وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتبًا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها ، وبسط ذلك يطول هاهنا ، والله أعلم][٤] .

﴿ **والسحاب المسخر بين السماء والأرض** ﴾ [أي : سائر بين السماء والأرض مسخر][٥] إلى ما يشاء[٦] الله من الأراضي والأماكن ، كما يصرفه الله[٧] تعالى ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ أي[٨] في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى ، كما قال تعالى :﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾ .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه (٩١٦) : أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدّثنا أبو سعيد الدَّشْتَكِيّ ، حدّثني أبي ، عن أبيه ، عن أشعث بن إسحاق ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد

(٩١٦) - **أشعث بن إسحاق** : ذكره البخاري (٤٢٨/١) وابن أبي حاتم (٢٦٩/٢) ونقل قول ابن معين : ثقة . ووثقه ابن حبان (١٢٨/٨) .

وجعفر بن أبي المغيرة : ذكره ابن حبان في الثقات ونقل ابن حبان في الثقات عن أحمد بن حنبل توثيقه ، وقال ابن مندة : ليس بالقوي في سعيد بن جبير ، وقال أبو نعيم الأصبهاني : اسم أبي المغيرة دينار وذكره البخاري وابن أبي حاتم ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً (الجرح ٤٩٠/٢) (التاريخ ٢٠٠/٢) وفي التقريب : صدوق يهم .

وأبو سعيد الدشتكي : عبد الله بن سعد قال في التقريب : صدوق . وذكره البخاري (١٠٧/٥) وابن أبي حاتم (٩٤/٥) .

والحديث رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/١٢) من طريق يحيى الحماني عن يعقوب القمي ، عن جعفر بن أبي المغيرة به نحوه .

[١] - ما بين المعكوفتين في ز ، خ : « من ذلك شيء » [٢] - في ز ، خ : « تارة » .
[٣] - سقط من : ز . [٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « يسخر » . [٦] - في خ : « شاء » .
[٧] - سقط في : ز . [٨] - في ز : « أن » .

ابن جبير ، عن ابن عباس ؛ قال : أتت قريش محمدًا صلى اللَّه عليه وسلم ؛ فقالوا : يا محمد ؛ إنا[١] نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ، فنشتري به الخيل والسلاح ، فنؤمن بك ونقاتل معك . قال : « **أوثقوا**[٢] **لي لئن دعوت ربي فجعل لكم الصفا ذهبًا لتؤمنن بي** » . فأوثقوا له ، فدعا ربه فأتاه جبريل فقال : إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهبًا على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين . قال محمد صلى اللَّه عليه وسلم : « **رب لا ، بل دعني وقومي فَلأَدْعُهم يومًا بيوم** » ، فأنزل اللَّه هذه الآية ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس** ﴾ الآية .

ورواه ابن أبي حاتم(٩١٧) من وجه آخر ، عن جعفر بن أبي المغيرة به . وزاد في آخره : وكيف يسألونك عن الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا .

وقال ابن أبي حاتم أيضًا(٩١٨) : حدّثنا أبي ، حدّثنا أبو حذيفة ، حدّثنا شبل ، عن ابن[٣] أبي نجيح ، عن عطاء ، قال : نزلت[٤] على النبي صلى اللَّه عليه وسلم بالمدينة : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ . فقال كفار قريش بمكة : كيف يسع الناس إله واحد ؟ فأنزل اللَّه تعالى ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس** ﴾ إلى قوله ﴿ **لآيات لقوم يعقلون** ﴾ .

فبهذا يعلمون أنه إله واحد ، وأنه إله كل شيء ، وخالق كل شيء .

وقال وكيع(٩١٩) [بن الجراح][٥] : حدّثنا سفيان ، عن أبيه ، عن أبي الضحى قال : لما نزلت : ﴿ **وإلهكم إله واحد** ﴾ إلى آخر الآية قال المشركون : إن كان هكذا فليأتنا بآية . فأنزل اللَّه- عز وجل- ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار** ﴾ إلى قوله ﴿ **يعقلون** ﴾ .

ورواه آدم بن أبي إياس ، عن أبي جعفر - هو الرازي - عن سعيد بن مسروق والد سفيان ، عن أبي الضحى ، به .

---

(٩١٧) - رواه ابن أبي حاتم برقم ١٤٦٥- (٢٧٣/١) من حديث عبد الرحمن بن عمر الزهري الصهباني رسته ، عن ابن مهدي - يعني عبد الرحمن - عن يعقوب بن عبد الله الأشعري ، عن جعفر به .

(٩١٨) - رواه ابن أبي حاتم برقم ١٤٦٤ - (٢٧٢/١) .

(٩١٩) - رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع عن أبيه به ٢٣٩٩ - (٢٦٩/٣) .

---

[١] - في ز : « إنما » .
[٢] - في خ : « وثقوا » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - في ز : « نزل » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .